التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت

الدكتور أحمد عبد الرحمن الذنيبات* **الدكتور خالد فرحان البداينة****

الملخص

يعمد هذا البحث إلى دراسة التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت- رضي الله عنه- والكشف عن مختلف النواحي والظروف الفكرية التي أسهمت في تشكيل النص، واستمد منها أفكاره.

فيدرس تأثر الشاعر بالقرآن الكريم، وانعكاس ذلك على شعره، وما ظهر من تحول في الفكر الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني، وكذلك من رؤية جديدة لقضية إلهام الشعر والدعوة المبكرة للخروج على بنية القصيدة الجاهلية.

* كلية الآداب- جامعة الطفيلة التقنية - الأردن

** كلية الآداب- جامعة الطفيلة التقنية - الأردن

المقدمة:

أحدث الإسلام تغييراً فكرياً في حياة العرب، شمل مختلف نواحي الحياة، يظهر ذلك جلياً في إبداع شعرائهم، ولعل من أبرز هؤلاء الشعراء، حسان بن ثابت .

ولإزالة الغشاوة عن تلك التغييرات، وإظهار أثر الإسلام فيها عمد الباحثان إلى كشف الخيوط الممتدة من شعر حسان إلى مصادر الدين الجديد الذي ينهل منها أتباعه تعاليمهم.

وتأتي الدراسة في مقدمة ومحورين وخاتمة، يتناول المحور الأول ما يخص الشعر والناحية المعنوية فيه مثل التحول في النظرة إلى قضية إلهام الشعر ، والتحول الذي طال بنية القصيدة؛ ونراه خروجاً مبكراً عمّا عُرِف في القصيدة الجاهلية عند العرب ؛ وعلى وجه الخصوص في قضية المقدمة الطللية، وبكاء المنازل ورحلة الشاعر، وكذلك التحول في الفكر الثقافي، وظهور مصطلحات جديدة لم نجدها في شعر حسان الجاهلي، أو أنه وظفها توظيفاً جديداً يغاير فيه دلالاتها السابقة، ثم يأتي المحور الثاني الذي يدرس التحول في الجانب الموضوعي كالتحول في الفكر الاجتماعي؛ حيث يظهر تعالقات اجتماعية جديدة على مستوى الأفراد والقيادة، وكذلك التحول في الفكر السياسي؛ من الانتماء المطلق للقبيلة، الوحدة السياسية عند العرب، إلى وحدة أشمل وهي وحدة الأمة؛ الإطار الكلي للرؤية السياسية، وأخيراً التحول الديني، ويشكل مثل هذا التحول بوتقة تذوب فيها التحولات السابقة كلّها إلاّ أننا نظرنا إليه من خلال بروز القضايا الإيمانية بشكلٍ جلي في الإنتاج الشعري لحسان، ومن ثمَّ تأتي الخاتمة حاملة ما توصلت إليه الدراسة من نتائج واستنتاجات.

على أن الباحثين لا يزعمان قصب السبق في دراسة هذا الموضوع فقد طرقه بعض الباحثين في دراساتهم ؛ ستظهر في حواشي هذا البحث ، حيثما أفاد الباحثان منها .

ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في معالجة النصوص من غير لي عنق النص أو تحميله فوق ما يحتمل .

التأثر القرآني:

لم تعد دراسة التأثر تنشغل في كشف التعالق بين النص –الظلال – والنصوص السابقة أو المزامنة –الجذور- بل تخطت ذلك لتكشف البيئة الاجتماعية والفكرية والسياسية المصاحبة لميلاد ذلك النص الجديد .

ولذا ينصب اهتمام هذا البحث على دراسة التأثر في شعر حسان بن ثابت، وكشف التحولات الفكرية عند الشاعر في المرحلة التي عاشها في ظل الدولة الإسلامية حيث أنتج ذلك الشعر، تلك المرحلة التي عايش فيها الشاعر بداية الدولة الإسلامية، وصاحب الرسول -صلى الله عليه وسلم - وسمع القرآن الكريم يتنزل على قلبه، فهنالك من القدماء من يرى أن الإسلام كان عاملاً مساعداً في رفع سوية أداء الشعراء، يقول ابن خلدون: "إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين ... فإنا نجد شعر حسان بن ثابت ... أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة ... والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ..."[1] ثم هي مرحلة الصراع الفكري بين العصر الجاهلي السابق بكل ما يحمله من معتقد ديني وفكري، وبين العصر الإسلامي الجديد بفكره ورؤيته للحياة والعالم، وشهد أهم النتاجات الأدبية لهذه المرحلة؛ ظهور مدرسة مكة الشعرية، ومدرسة المدينة، بشعرائها الذين اعتنقوا الدين الجديد .[2]

ولعل من أهم الفروق بين المدرستين،هو ذلك الانزياح الفكري الكبير الذي حدث لشعراء المدينة،إذ شكل لهم الدين الجديد دستور حياة يغذي الفكرة، ويوجه الإبداع، واشتهر من شعراء المدينة عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وإن

(1) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (808هـ- 1405م): المقدمة، دار الشعب، مصر، ص544.

(2) شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط7،(د.ت)ص47 وخليف، يوسف : دراسات في الشعر الجاهلي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1976، ص17-19.

كان ابن رواحة أسرعهم تأثراً بالمعاني الإسلامية: إذ كان حسان وكعب يعارضان شعراء مدرسة مكة " بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر"[1] ولكن الأجل لم يمهل ابن رواحة فقد استشهد في معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، أمَّا من طال عمره في الإسلام واستوت معانيه الإسلامية على عودها، فهو حسان بن ثابت. [2]

وقد فضل الشعراء بثلاث :" كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر -النبي صلى الله عليه وسلم - في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام "[3]

ومن ثم اتخذه الباحثان أنموذجاً في دراستهما،وينكشف التأثر في عدد من المحاور؛ تتجلى من خلالها التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري، من أهمها:

1-1 إلهام الشعر:

فإذا وجدنا الإغريق ينسبون إلهام الشعراء إلى آلهة الشعر[4]، فإن العرب نسبوا ذلك إلى الشياطين، وأن لكل شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه، وذكروا قصصاً تتحدث عن رؤية بعض الأعراب شياطين الشعراء، والالتقاء بهم وأن لهؤلاء الشياطين أسماءَ عرفوا بها، فشيطان عبيد بن الأبرص اسمه (هبيد)، وشيطان كميت بن ثعلبة اسمه (مدرك)، وشيطان الأعشى اسمه (مسحل)، وشيطان امرئ القيس فهو (لافظ بن

(1) أبو الفرج، الأصفهاني، علي بن الحسن (ت356هـ-967م):الأغاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج4، ص144-145.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص142"عمَّر حسان بن ثابت عشرين ومائ سنة: ستين في الجاهلية وستين في الإسلام" .

(3) المصدر نفسه، ج4، ص143

(4) محمد غنيمي هلال:النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1973، ص30 .

لاحظ) وللنابغة الذبياني صاحب اسمه (هاذر بن ماهر) [1]، وقال الجاحظ" إنهم يزعمون أن كلاب الجن هم الشعراء " [2].

ويذكر صاحب ثمار القلوب: "كانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه وتعينها عليه"[3].

ولم يتوقف الأمر عند النقاد، بل أورد بعض الشعراء أسماء شياطينهم في أشعارهم،ولما كان مدار بحثنا في شعر حسان بن ثابت، فإنه لم يذكر اسم شيطانه، واكتفى بذكر اسم القبيلة التي ينتمي إليها ذلك الشيطان، في قوله :[4]

ولي صاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَان فَطَوْراً أَقُولُ وَطَوْراً هُوَهْ

ويصف الجاحظ هذا البيت بقوله: " وهذا البيت يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون أن مع كل شاعر شيطاناً"[5].

وثمة موقع آخر يذكر فيه حسان صاحبه الجني حيث يقول[6]:

وَأَخِي مِنَ الْجِنِّ الْبَصِيرُ إذا حاكَ الْكَلامَ بِأَحْسَنِ الْحِبْرِ

---

(1) أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب (170هـ-746 م) :جمهرة أشعار العرب، شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003، ص57-73.

(2) أبو عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر (255 هـ- 868م): الحيوان، تحقيق: د. يحيى الشامي ، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1997،3، المجلد الثاني، ج6، ص443.

(3) أبو منصور، الثعالبي، عبد الملك بن محمد (429 هـ1040 م) : ثمار القلوب، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، مصر، ط1، 1965، ص70. ومن المحدثين من تناول هذه القضية؛ ينظر على سبيل المثال: عبد الرزاق حميدة،: شياطين الشعراء، مكتبة الإنجلو، مصر، 1956. وعبدالله سالم المعطاني: قضية شياطين الشعراء وأثرها في النقد العربي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، م1، ع1-2، يوليو/ أغسطس،1991، ص13-23.

(4) الأنصاري، حسان بن ثابت (54هـ-674م): شرح الديوان، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006، ص282، يشار إلى هذا المصدر في الحواشي القادمة بـ(شرح الديوان).

(5) الجاحظ : الحيوان، المجلد 2، ج6، ص434

(6) شرح الديوان : ص107.

ومن هنا يمكن القول: إنَّ قضية الإبداع الشعري ارتبطت بعالم الجن عند حسان كغيره من الشعراء، وكأن العربي لا يكون شاعراً، إلاّ باتصاله بعالم الجن وأن الجني هو من يملي على الشاعر شعره، فكاد الشاعر يتحول من دور المبدع إلى دور الراوية عن الجني، في مستوى القول على أقل تقدير، أمَّا بعد دخوله الإسلام فإن التحول الفكري قد طال هذه القضية، حيث تحول الإسناد الإبداعي من الجن والشياطين، إلى التأييد من الملائكة ويبدو ذلك جليًّا في ترديد حسان بن ثابت للحديث النبوي الشريف الذي يشتمل على دعاء الرسول-صلى الله عليه وسلم- له بتأييد الملائكة، وذلك في قوله عليه السلام : " اللّهم أيِّده بروح القدس"[1] وقوله عليه السلام :" اهجهم أو هاجهم وجبريل معك " [2] ويدرك المتلقي من قول الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن طلب التأييد من الله- عزت قدرته- واهب القول والفكر، وأن دور الملائكة يكون في الوحي والإيصال وهذا هو التحول والقناعة الجديدة في الطلب من الله والاستناد إليه- عزَّ وجل- لا إلى الجن والشياطين، كما كان في الجاهلية، وهذا ما فطن له القيرواني حين ترجم لحسان بن ثابت، يقول: " وأمَّا حسان فقد اجتث بواكر غسان، ثم جاء الإسلام، وانكشف الظلام، فحاجج عن الدين، وناضل عن خاتم النبيين؛ فشعر وزاد، وأحسن وأجاد؛ إلاّ أن الفضل في ذلك لرب العالمين، وتسديد الروح الأمين"[3] كما تردد ذكره للملائكة وحلولهم في المسلمين كقوله:[4]

(1) أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (261هـ- 875 م): صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، تحقيق: نظر بن محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 2006، المجلد 2، ص1161- 1162.

(2) أبوعبدالله، البخاري، محمد بن إسماعيل(256هـ- 869م): صحيح البخاري بحاشية السندي، دار المعرفة، بيروت، ج3، ص35.

(3) أبو عبيدالله ، ابن شرف القيرواني (460هـ- 1067م): رسائل الانتقاد(في نقد الشعر والشعراء) تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1983،ص27

(4) شرح الديوان : ص15

وَجِبْريلٌ أَمينُ اللهِ فينا وَروحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفاءُ

وفي هذا البيت نلحظ تعالقاً مع عدد من الآيات القرآنية الكريمة، مثل قوله تعالى:﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(1). واختار - عليه الصلاة والسلام- حسان لحماية أعراض المسلمين بلسانه".(2) فلعله استعاض بلسانه عن سيفه في حرب المشركين ، وربما كان ذلك مسوغاً لتكرار ذكر نصرة الملائكة للمسلمين في حروبهم كقوله(3):

برِجالٍ لَستُمُ أَمثالَهُم أُيِّدوا جِبْريلَ نَصْراً فَنَزَلْ

وقوله (4):

وَيَومَ بَدْرٍ لَقيناكُمْ لنا مَددٌ فَيَرْفَعُ النَّصْرَ ميكالٌ وَجِبْريلُ

وفي ذكر الملائكة هذا وقع التأثر بالقرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(5)، ولم يغفل القدماء عن ذلك الاقتباس، وسوغوا عدم الإشارة إليه " لاختصاصه في الغالب في القرآن الكريم "(6).

2-1 التحول في بنية القصيدة:

وإذا سار الشعراء المخضرمون- وحسان بن ثابت منهم- على النمط الجاهلي في بنية القصيدة؛ فثمة تحول طال تلك البنية في بعض شعره الإسلامي، ونلمح دعوة مبكرة للخروج على الوقفة الطللية وبكاء الديار؛ ويبدو أن هذا التحول من نتاج

---

(1) القرآن، سورة 16، الآية 102. وينظر: سورة 2 ، الآيتان 97-98. و سورة 66 آية 4

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج4، ص152

(3) شرح الديوان، ص191

(4) شرح الديوان، ص220

(5) القرآن، سورة 3، آية 125. وينظر سورة 8، الآية 12.

(6) أبو بكر، الباقلاني، محمد بن عبد المطلب (403هـ- 1012م) :إعجاز القرآن الكريم، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص94.

الفكر الجديد؛ إذ يقابل هذا الخروج دعوة للالتفات إلى الصحابة الذين لم يكن يربطهم بالشاعر أي رابط قبل الإسلام، وليس من داع لذكرهم في شعره، سواء في الرثاء أو المديح لولا الرابطة الاجتماعية الجديدة، التي شيدت بها أواصر المجتمع الإسلامي، من ذلك قوله في رثاء حمزة بن عبد المطلب –رضي الله عنه : [1]

دَعْ عَنْكَ داراً قَدْ عَفا رَسْمُها وَابْكِ عَلى حَمْزَةَ ذي النَّائِلِ

وقوله في رثاء عثمان بن عفان- رضي الله عنه [2] :

يا للرِّجالِ لِدَمْعٍ هاجَ بالسَّنَنِ إنِّي عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكي عَلى الدِّمَنِ

إنّي رأيتُ أمين اللّهِ مضطهداً عثمانَ رهناً لدى الأجداثِ والكفنِ

فقد تحول الشاعر من بكاء الطلل إلى بكاء الإنسان ورثائه، وكما أن هذا يشكل خروجاً على البنية الشكلية للقصيدة فإنه يشكل خرقاً للبنية المعنوية في القصيدة الجاهلية؛ إذ الرثاء يكون لقريبٍ من القبيلة تؤلم الشاعر فاجعة موته حين تحل فيهم، أمَّا هذا الرثاء، فهو علامة على ظهور تآلف اجتماعي جديد، وتحول في ميزان النظرة الاجتماعية على مستوى العلاقات الفردية.

وثمة تحول آخر نجده في شعر حسان الإسلامي، وهو تحول في تقديم البدائل لعلاقة الشاعر بالمحبوبة، وقد عهدناهم يميلون إلى الناقة ليحمِّلوها الهموم باختلاف أضربها؛ من قطع المحبوبة حبل وصلها، أو تلون ود الصاحب ونفاقه وغيرها من الهموم[3]، ويبدو أن خروجه على الناقة يمثل نوعاً من الهروب؛ فغالباً ما كان حديث الرحلة يبدأ

(1) شرح الديوان، ص 207.

(2) شرح الديوان، ص271-272، حيث يعجب الشاعر في رثائه عثمان ممن يبكي الدمن .

(3) أنور أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم،الرياض، ط1، 1983، ج1، ص59.

بصيغة موحدة قولهم :" دع ذا " أو "دع عنك " ومثل ذلك قوله، بعد حديث الطلل والمحبوبة:[1]

دَعْ ذِكْرَهـا وَانْـمِ إلـى جَـسْرَةٍ جُلْذِيّـةٍ ذاتِ مـراحٍ عقـامْ

وكذلك التخلص من الهمِّ، بعد حديث العاذلة، في قوله:[2]

وإنِّي إذا مـا الْهَـمُّ ضـافَ قَرَيْتُـهُ زَماعاً وَمِرْقـالَ العـشيّاتِ عَـيْهَلا

وقد وصف بعض الباحثين هذه الصيغة بوسيلة التخلص، ومال بعضهم لتسميتها بوسيلة الربط .[3] وما يهمُّنا في هذا المقام هو التحول الفكري عند حسان من الدعوة للخروج والهروب من الهَمِّ إلى الإقبال على رب العالمين وبثّه الهموم، كما في قوله:[4]

فدَعِ الـدِّيارَ وَذِكْـرَ كُـلّ خَريـدَةٍ بَيْـضاءَ آنـسَةِ الحـديثِ كَعـابِ
واشْكُ الهُمومَ إلى الإلهِ وَمـا تَـرى مِـنْ مَعْـشَرٍ مُتَـأَلِّبينَ غِـضابِ

أو المجيء إلى الرسول –عليه السلام –الذي يقدم الأمن لأصحابه ، يقول[5] :

دَعْ عَنْكَ شَعْثاءَ إذْ كانَـتْ مَوَدَّتُهـا نَزْراً وَشَرٌّ وِصالِ الواصِـلِ النَّـزِرُ
وَأْتِ الرَّسولَ فَقُلْ يا خَيْـرَ مُـؤْتَمَنٍ لِلْمُـؤْمِنينَ إذا مـا عُـدَّ الْبَـشَرُ

(1) شرح الديوان: ص247.
(2) شرح الديوان: ص223.
(3) أنور أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، ج1، ص62، وينظر شرح الديوان، ص247.
(4) شرح الديوان: ص18.
(5) شرح الديوان، ص123.

وكأن الانضواء في تعالق اجتماعي تحت جناح الرسول –عليه السلام – يشفي الهمَّ ويخلص من معاناة الوجد، كما يُظهر هذا التضامن الاجتماعي، والعطف والحنان من الرسول- عليه السلام- طبيعة البنية الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الجديد.

3-1 التحول الثقافي :

وبعد استقراء شعر حسان نلحظ أن ثمة تحولاً في البنية الثقافية للشاعر، ودخول مصطلحات جديدة في تشكيل المعنى الشعري لديه ،أو توظيف مصطلحات عرفت في لغة العرب في الجاهلية، ولكنها وظفت في دلالات إسلامية جديدة، يقول في رثاء عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[1]:

وَفَجّعَنَا فَيْروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ   بِأَبْيَضَ يَتْلُو الْمُحْكَمَاتِ مُنِيبِ

نلحظ خصوصية توظيف المصطلح في قوله يتلو المحكمات،فالمحكمات هنا ترتبط بمفهوم إسلامي؛ جاء واصفاً بعض الآيات القرآنية الكريمة كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[2]، وفي موقع آخر نلمس توظيف مصطلح جديد، لا عهد لهم به، وهو (الساعة) أحد أسماء يوم القيامة، وذلك في قوله :[3]

فَتَقُومَ سَاعَتُنا فَنَلْقَى طَيِّباً   مَحْضاً ضَرائِبُهُ كَرِيمَ الْمَحْتِدِ

فهذا نوع من التحول الفكري، فالإيمان بالبعث ويوم الحساب بعد الموت يأتي تحت هذا المصطلح الإسلامي الجديد؛ ليصبح من المخزون الثقافي للشاعر، وسبيل

(1) شرح الديوان 31

(2) القرآن، سورة 3، آية 7.

(3) شرح الديوان ، ص65.

الشاعر إلى هذه المصطلحات يتأتّى من إدراكه لعدد من الآيات القرآنية الكريمة ، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1]وقوله تعالى:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [2]. ومن هذه المصطلحات أيضاً (جنة الفردوس) في قوله:[3]

في جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ واكْتُبْهَا لَنَا يا ذا الْجَلالِ وَذا الْعُلا وَالسُّؤْدَدِ

وقد ورد ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم غير مرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [4]وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [5]. وكذلك (جنة الخلد) و (الحور) نساء الجنة ، ووصف الملائكة في مشهد يوم القيامة في قوله :[6]

فَاذْهَبْ خُبَيْبُ جَزاكَ اللهُ طَيِّبَةً وَجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحورِ في الرُّفَقِ
ماذا تَقولونَ إنْ قالَ النَّبِيُّ لَكُمْ حينَ الملائِكَةُ الأَبْرارُ في الأُفُقِ

فقد استقى هذه الصور وما حملت من مصطلحات جديدة من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [7] وفي البيت الثاني يلتقي مع قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذ ثَمَانِيَةٌ﴾[8] ومثل ذلك أيضاً ذكره طعام أهل النار (الضريع) وتفيد أكثر الروايات أن هذا الطعام مما لا يعرفه العرب بهذا الاسم؛ وإن قال بعضهم إنه نبات له شوك كبير

(1) القرآن، سورة 30، آية12.
(2) القرآن، سورة 30 آية14. وينظر: السورة نفسها، آية55، وسورة 40، آية46.
(3) شرح الديوان، ص66.
(4) القرآن، سورة 18، آية 107
(5) القرآن، سورة 23 ،آية 11.
(6) شرح الديوان، ص181
(7) القرآن، سورة 52، آية 20،
(8) القرآن، سورة 69، آية 17.

ينبت في الحجاز، ويقال له الشبرق، ولكنه بهذا الاسم (الضريع) من الغيبيات ولم يعرفوه إلاّ في القرآن الكريم، حيث ورد في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [1] وضمنه حسان في قوله:[2]

وَقَتْلاكُمُ في النّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَميمٌ مَعاً في جَوْفِها وَضَريعُ

كما طال التحول مفهوم بعض الأسماء؛ ذات الدلالة المعنوية، مثل(النفاق) من نفق التي عُرف لها معانٍ عدة في الجاهلية؛ [3] ، يقول ابن منظور: " هو إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به؛ وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً"[4] وبهذا المعنى تكرر ورود اللفظ في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [5]، وبهذا المعنى وردت أيضاً عند حسان في قوله:[6]

وَكَمْ رَدَدْنا بِبَدْرٍ دونَ ما طَلَبُوا أَهْلَ النِّفاقِ وَفينا أُنْزِلَ الظَّفَرُ

(1) القرآن، سورة 88، آية 6.

(2) شرح الديوان ، ص 163 .

(3) عودة خليل أبو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الأردن- الزرقاء، ط1، 1985، ص264-266.

(4) أبو الفضل، ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم(711هـ-1311م): لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، مادة نفق.

(5) القرآن، سورة 4، آية 140.

(6) شرح الديوان، ص124.

ومثل ذلك لفظة(الوحي) فقد كانت تعني في الجاهلية الرمز والإشارة والإلهام[1]، وقد" استعمل هذا المعنى في القرآن الكريم بهذا المعنى أيضاً، إلاّ أنّ المعنى الإسلامي الذي دارت حوله الكلمة هو إطلاق الإلهام والوساطة التي تنزل بها الآيات القرآنية على الرسول- صلى الله عليه وسلم"[2]، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ [3]، وبهذا المعنى وردت في شعر حسان، في قوله[4]:

تَقَطَّعَ فيهِ مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمُ وَقدْ كان ذا نورٍ يغورُ ويُنجِدُ

وهنالك بعض الأفعال ذات الدلالة المعنوية يوظفها الشاعر وفق ما جاءت في القرآن الكريم مثل فعل (ران) وهو في الأصل لما يغلب على العقل، كقولهم: رانت عليه الخمر أي غلبت على عقله، أما عند الشاعر في قوله[5] :

عَلِقَ الشّقاءُ بِقَلْبِهِ فَأَرانَهُ في الْكُفْرِ آخِرَ هذهِ الأَحْقابِ

فتعني أن الران قد غطّى على قلبه، وركبه من القسوة؛ للذنب بعد الذنب، وهو ما يتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم، في قوله تعلى: ﴿ كَلاّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [6] ومثل ذلك لفظة شهيد ومجاهد، في قوله:[7]

(1) الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت393هـ- 1002م): الصحاح، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، 1957، مادة وحي.

(2) ابتسام مرهون الصفار: أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول هجري، دار جهينة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2005، ص26 .

(3) القرآن، سورة 21، آية45.

(4) شرح الديوان، ص62.

(5) شرح الديوان، ص20.

(6) القرآن، سورة 83، آية 14،

(7) شرح الديوان: ص77. وينظر مثل هذا؛ ص115، و ص

وَمِنَّا قَتيلُ الشِّعْبِ أَوْسُ بْـنُ ثابِـتٍ شَهيداً وَأَسْنى الذِّكْرَ مِنْهُ المَـشاهِدُ
وَمَنْ جَدُّهُ الأَدْنَى أبي وابْـنُ أُمِّـهِ لأُمِّ أَبـي ذاك الـشَّهيدُ المُجاهِـدُ

" واقترن الجهاد بلفظ الشهيد والشهداء، والشهادة في الأصل الحضور والإعلام، وكذا استعملت في العصر الجاهلي، ثم تطور معناها في العصر الإسـلامي للدلالـة علـى القتيل الذي يقتل في سبيل الله" [1]ونلحظ التـأثر الـصِّيغي، حيـث يـشاكل الـشاعر الصياغات القرآنية، فضلاً عن المعنى القرآني المضمن في الشعر، في قوله: [2]

وَغَدَوْا عَلَيْنـا قـادِرينَ بِأَيْـدِهِمْ رُدّوا بِغَـيْظِهِمُ عَلـى الأَعْقـابِ
بِهُبُوبِ مُعْـصِفَةٍ تُفَـرِّقَ جَمْعَهُـمْ وَجُنُـودِ رَبِّـكَ سَـيِّدِ الأَرْبـابِ
وكفـى الإلـهُ المُـؤْمنينَ قتـالَهُمْ وأَثابَـهُم في الأجْرِ خَيـرَ ثـوابِ
مِنْ بَعْدِ مـا قَنَطـوا فَفَـرَّجَ عـنْهُمُ تَنْـزيلُ نَـصٍّ مَليـكِـنـا الوَهَّابِ

فقوله: وغدوا علينا قادرين" وردوا بغيظهم" و"جنود ربك" كلها صيغ وتراكيب قرآنيـة تسهم في تشكيل البنية، فضلاً عن المعنى المتضمن من حـديث الأحـزاب، وهبـوب الريح والهزيمة التي حلت بهم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [3] وقوله تعالى:﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَـالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[4]وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[5]

(1) ابتسام مرهون الصفار: أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول هجري، ص44
(2) شرح الديوان، ص19. وينظر: عودة خليل أبو عودة: التطور الدلالي بين لغـة الـشعر ولغـة القرآن، ص264-265.
(3) القرآن، سورة 68، آية25
(4) القرآن، سورة 33، آية25
(5) القرآن، سورة 33، الآية9 .

2-1 : تحولات الفكر الاجتماعي:

وربما كان التحول في الرؤية الاجتماعية من أهم السمات التي تجلّى فيها التحول الفكري، وصبغت شعر حسان بن ثابت الإسلامي، ويظهر ذلك جلياً في غرضي المديح والهجاء؛ أمَّا المديح فلم نره في القصيدة الجاهلية إلا لسيد القبيلة، أو أحد العظماء الذين يُرتجى نوالهم؛ كمدائحه في الغساسنة[1]، وهو يغاير ما وجدناه في شعر حسان الإسلامي، إذ يمتدح من غير انتظار الجزاء، كما أنه جاء لأشخاص لا يؤطرهم به رابطة الدم، من ذلك قوله في رثاء أبي بكر[2]:

إذا تَذَكَّرْتَ شَجْواً مِنْ أَخي ثِقَةٍ فاذْكُرْ أَخاكَ أَبا بَكْرٍ بِما فَعَلا
التّالِيَ الثّانِيَ الْمَحْمودَ مَشْهَدُهُ وَأَوَّلَ النّاسِ طُرّاً صَدَّقَ الرُّسُلا
وَالثّانِيَ اثْنَيْنِ في الْغارِ الْمُنيفِ وَقَدْ طافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَّدَ الْجَبَلا
وَ كانَ حِبَّ رَسولِ اللهِ قَدْ عَلِموا مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

وينكشف التأثر بالعودة إلى النص الأصلي لهذه المعاني الواردة في الأبيات، فهي معانٍ نصت عليها الآيات القرآنية في حادثة الهجرة؛ كما في قوله تعالى: " إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[3].

كما نلحظ أن هذه المعاني مغايرة لتلك المعاني الجاهلية المختصة بغرض الرثاء وأنها تأتي في تعالق اجتماعي قائم على أسس المحبة بين أفراد المجتمع وبنياته الجديدة، لم تعرفها الجاهلية.

(1) شرح الديوان،193-196.
(2) ينظر شرح الديوان: ص188-189.
(3) القرآن، سورة9، آية 40.

ويظهر هذا التضامن الاجتماعي، والعطف والحنان من الرسول -عليه السلام- على أصحابه في موقع آخر من الديوان حيث يقول [1]:

عَزيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحيدوا عَنِ الْهُدى حَريصٌ عَلى أَنْ يَسْتَقيموا وَيَهْتَدوا
عَطوفٌ عَلَيْهِمْ لا يُثَنِّي جَناحَهُ إِلى كَنَفٍ يَحْنو عَلَيْهِمْ و يَمْهَدُ

فمع الحرص على الهداية يتصف بالعطف والحنو على أصحابه، ولم يكن الشاعر بهذا بعيداً عما ورد في القرآن الكريم، فيما يصف به الله –عز وجل- رسوله الأمين في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [2].

وثمة مفارقة يقدمها الشاعر في التعالق الاجتماعي؛ إذ إن الرأفة التي يتعامل بها الخليفة مقصورة على المؤمنين، في حين لا ينال منه الكفار إلا الغلظة والشدة، يقول[3]:

رَؤوفٍ عَلى الأَدْنى غَليظٍ عَلى الْعدا أَخي ثِقَةٍ في النَّائِباتِ نَجيبِ

وقد استوحى المعنى والصياغة من الآيات الكريمة التي تصور معاملة الرسول -عليه السلام- لصحبه الكرام، في قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[4] ، وأمَّا الهجاء فإنه بني على أسسٍ جديدة، فإذا كان الكرم من

(1) شرح الديوان، ص62-63
(2) القرآن، سورة 9، آية 128.
(3) شرح الديوان، ص31
(4) القرآن، سورة 48 آية،29. وينظر: سورة 5، آية29.

صفات الجاهلية الحميدة التي أثبتها الإسلام، فإن ذلك لا يكفي؛ إذا كان صاحبه بعيداً عن طريق الحق ومناوئاً للإسلام؛ فحسان يهجو أبا جهل، ولم يشفع له ما عرف به من كرم:[1]

وإنْ تكُ مِطعامُ العَشِيّاتِ من غِنىً فإنّكَ حيّادٌ عن الحقِّ مانعُ
وزادكَ ذمٌ في الحياةِ وإنْ تَمُتْ فحظُّكَ ركنٌ من جهنّمَ واسِعُ

فالتحول يبدو واضحاً في النظرة إلى هذه الخصلة مطلقة المديح في الجاهلية، كما تظهر نظرة الشاعر الإسلامية الكلية التي لا تقبل التجزئة؛ فعلى الرغم من نعته للمهجو بصفة الكرم وتوظيف صيغة المبالغة في ذلك (مطعام)، فإن التحول يتكشف على أشده عندما ينسخ صفة المدح ليتحول إلى الذم وبصيغة المبالغة أيضاً (حيّاد) ويسبقها بالتوكيد (فإنك)فلم ينفع أبا جهل ما عرف عنه من سخاءٍ في الجاهلية[2].

وثمة تحول في النظرة إلى قيمة الغرض الشعري، فقد ساوى حسان بين مدح الكفار وذمهم لرسول الله-عليه الصلاة والسلام- ولم يتأت ذلك من النظر إلى المضامين الشعرية، وإنما جاء الدافع وراء ذلك الحكم من النظر إلى مصدر ذلك الشعر" لأنه صادر من عدوٍ كافر يحمل صفة الكفر؛ والكفر هو شر بعينه، ولا يحتمل صدور الخير منه، لذلك استوت لديه هذه المتضادات"[3]، ويبدو ذلك جلياً في خطاب حسان لأبي سفيان، في قوله[4]:

(1) الأنصاري، حسان بن ثابت: الديوان، تحقيق: سيد حنفي، مطابع الهيئة المصرية العامة ،القاهرة، 1974، ص263.

(2) نضال أحمد باقر الزبيدي: الثنائيات المتضادة في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام، دار الينابيع، ستكهولم، ط1، 2010، ص120. وعن كرم أبي جهل، ينظر: أبو جعفر، البغدادي، محمد بن حبيب (245هـ- 859م): المحبر، تصحيح: إيلزة ليختن، دار المعارف العثمانية، 1942، ص140.

(3) المرجع نفسه، ص152.

(4) شرح الديوان، ص16.

هَجَــوْتَ مُحَمَّــداً فَأَجَبْــتُ عَنْــهُ وَعِنْــدَ اللّــهِ فــي ذاكَ الجَــزاءُ
هْجــوهُ ولَــسْتَ لَــهُ بِكُــفْءٍ فــشرُّكُما لِخيْرِكُمــا الفِــداءُ
هَجَــوْتَ مُبارَكــاً بَــرّاً حَنيفــاً أَمِــينَ اللّــهِ شِــيمَتهُ الوَفــاءُ
فَمَنْ يَهْجــو رَسُــولَ اللَّــهِ مِــنْكُمْ وَيَمْدَحُــهُ وَيَنْــصُرُهُ سَــواءُ

وتنسحب النظرة الإسلامية على ملحظ آخر يتمثل في قضية الصدق والكذب في الإبداع ، فلم تعد النظرة إلى الشعر على أنّ أعذب الشعر أكذبه[1]، وإنَّما تحولت نقيض ذلك لتتوافق

والنظرة الإسلامية؛ ليصبح أحسن الشعر –عند حسان- ما اتصف بالصدق، وذلك في قوله[2]:

وإنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ بَيْتٌ يُقالُ إِذا أَنْشَدْتَهُ صَدَقا

2-2: التحول السياسي:

في هذا التحول يتبدل أسلوب الخطاب، ونلحظ الارتقاء في توظيف الضمائر من المفرد إلى الجمع، وفي هذا المستوى أيضاً تبرز المغايرة؛ إذ لم يعد الضمير معبراً عن العشيرة كما عهدناه قبل الإسلام في مثل قوله[3]:

(1) ينظر على سبيل المثال: أبو علي، القيرواني، الحسن بن رشيق(456هـ- 1063م): العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي،القاهرة، ط1، 2000م، ج1، ص14-15. ومحمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط1، 1972، ص35. وإحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1983، ص34-36. وإن قصد بالكذب الخيال والمبالغة، فإن حسان بن ثابت يرمي إلى الصدق على الحقيقة.

(2) شرح الديوان، ص183.

(3) شرح الديوان، ص85.

وَمِثْلـــــي أطــــــاقَ ولكننَّـــــــي أُكَلِّـــفُ نَفْـــسي الَّـــذي آدَهـــا
سَـــأُوتي العَـــشِيرَةَ مـــا حَاوَلَـــتْ إِلَــــيَّ وَأُكْــــذِبُ إِيعادَهَــــا
وأَحْمِـــــلُ إنْ مَغْـــــرَمٌ نَابَهَــــا وأضْــرِبُ بالـــسَّيْفِ مَـــنْ كادَهـــا

ففي هذه الأبيات يظهر الضمير المفرد العائد على الشاعر سافراً، ويبرز الانقيـاد المطلق للعشيرة، والتضحية في سبيلها، سواء كان ذلك في المغرم المادي أو في القتال والدفاع عنها، أمّا بعد دخوله الإسلام، فيتبدل أسلوب الإرسال ومستواه، مـن ضـمير المفرد إلى الجمع، ومن العشيرة يرتقي إلى مستوى الأمـة التـي تمتلـك المقومـات الجديدة، فتذوب القبيلة في بوتقتها، يقول مفاخراً(1) :

يَنْتابُنـــا جِبْريـــلُ فـــي أَبْياتِنـــا بِفَــرائِضِ الإِسْـــلامِ وَالأَحْكـــامِ
يَتْلو عَلَيْنـا النُّـورَ فيهـا مُحْكَمـاً قِـسْماً لَعَمْـرُكَ لَـيْسَ كَالأَقْـسامِ
فَنَكُـــونُ أَوَّلَ مُـــسْتَحِلٍّ حَلالِـــهِ وَمُحَــــرِّمٍ للهِ كُـــلَّ حَـــرامِ
نَحْنُ الخِيـارُ مِـنَ الْبَرِيَّـةِ كُلِّهـا وَنِظامُهـا وَزِمـامُ كُـلِّ زِمـامِ

يبدأ الشاعر بالمقدمات التي تفضي به إلى النتيجة الكبرى، فالبيت الأول يعطـي المسبب؛ حيث جبريل –عليه السلام – ينزل على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ،ولكنه لم يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما يأتي بالفعل المضارع الذي يشي أولاً بالديمومة؛ ديمومة النزول التي تعني دوام التواصل مع الله –عز وجل- بوساطة جبريل، ثم إن الفعل "ينتابنا " الذي يتقدم جبريل اتصل بضمير الجمع وكأنـه بنزولـه على محمد- عليه السلام- إنما ينزل على كل بيت من الأمة، وتأكيداً لهذا المعنى ختم الشطر بقوله:(في أبياتنا) ثم يبدأ البيت الثاني بفعل مضارع أيضاً (يتلو) يتبعه ما يؤكد الجمع (علينا) فتأتي النتيجة الأولى، أو ما قبل الحكم الكلي ، فيبدأ البيت الثالث بقولـه:

(1) شرح الديوان، ص253

فنكون أول "فالفعل "تكون" يفيد الجمع يتلوه اسم يفيد التوحد المطلق في المشاركة هو "أول" وتعطي تكملة البيت الأعمال التي اشترك بها الجمع والتي تفضي إلى النتيجة الكبرى، ويتمكن الشاعر من الانطلاق بقوة في إصدار حكمه الذي يبدأ بإعلان الاندغام الكلي في الجمعي، ويخوله ذلك بافتتاح البيت بضمير الجمع "نحن"ونحن هذه تعني الأمة إذ يقابلها البرية التي تعني الكون والعالم، ولا يتوقف عند إصدار قرار الأفضلية على العالم، بل يجعل أمته في المقدمة والقيادة إذ " لم يعد فخر العربي بشجاعته وقوته مخصصاً لخدمة القبيلة والمجد الفردي، وإنّما صار يصب في خدمة الأمة جميعاً، بعد أن أوضحت له عقيدته الإسلامية أن عز القبيلة من عز العرب، وأن المجد الذي يسعى إلى تحقيقه لقبيلته يبقى ناقصاً إذا بقيت القبائل العربية مجزأة ضعيفة"[1] ولم تكن هذه المعاني تتأتى للشاعر أو تدور في فكره قبل الإسلام، وقبل الارتشاف من معين القرآن الكريم، الذي حول فكرهم من نظام العشيرة إلى نظام أوسع يكون فيه التنافس والموازنة والخطاب للإنسانية والكون، وفق معايير ومقاييس محددة، كما

في قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾[2].

ويستطرد الشاعر في غير موقع، يوظف ضمائر الجمع ،من ذلك قوله:[3]

وَكَمْ رَدَدْنا بِبَدْرٍ دُونَ ما طَلَبُوا أَهْلَ النِّفاقِ وَفينا أُنْزِلَ الظَّفَرُ

وَنَحْنُ جُنْدُكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ أُحُدٍ إِذْ حَزَّبَتْ بَطَراً أَشْياعَها مُضَرُ

فالفعل "ردَّ" في البيت الأول يتبعه الضمير المتصل "نا" الذي يعيد الفاعلية في معركة بدر للمسلمين، وكذلك الضمير المنفصل في البيت الثاني "نحن" التي يتبعها الجمع

(1) أيهم عباس حمودي: شعر العقيدة في صدر الإسلام وحتى نهاية 230هـ ، مكتبة النهضة العربية، بغداد، ط1، 1986 م،ص260.

(2) القرآن، سورة 98، آية 7.

(3) شرح الديوان، ص124، النعف : أسفل الجبل ومثله الخيف.

"جند" المضافة إلى الكاف العائدة على الرسول- عليه السلام- وهنالك ملحظ معنوي في البيت الأول، وهو أن المعركة لم تكن مع قريش وحدها، وإنما ثمة جبهة أخرى أو مواجهة مع طرف آخر، وهم المنافقون، ولا يخفى أمرهم فَهُم داخل صفوف الأمة الإسلامية، بمعنى آخر أن التصنيف هنا لم يعد عشائرياً، وإنما هو تصنيف عقدي، يرتبط بصدق الانتماء والولاء للإسلام، ويستند حسان في هذه المعاني إلى ما ذكره الله –عزوجل- من أمر المسلمين في معركة بدر:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ*...* لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (1)

وبذا فإنَّ" التطور المهم الذي حدث؛ هو أنَّ الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأمة، فلم يهدد بهذا ذاتية الشاعر، بل أراد لها أن ترحب، فلا تعود محدودة بنطاق الأسرة والقبيلة"(2)، ومن هنا جاء ترديد الشاعر للاسم الجديد لقبيلته؛ الأنصار الذي ضم فضلاً عن قبيلته- الخزرج- قبيلة الأوس، ويفاخر الشاعر بهذا الاسم، كقوله:(3)

سَمّاهُمُ اللّهُ أنْصاراً لِنَصْرِهِمُ دينَ الهُدى وَعَوانُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ

ويبدو أنَّ الحافز لهذا التفاخر يرتبط بشكلٍ مباشر بسبب التسمية، وهو ما يظهر جلياً في بيت الشعر المذكور، وما كان لشاعر رسول الله- عليه الصلاة والسلام- أن يدعي ذلك لولا وروده في القرآن الكريم مباشرة، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ

(1) القرآن، سورة 3، آيات:118-128..

(2) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1970، ص66.

(3) شرح الديوان، ص123، ومثل ذلك ينظر: ص15، 35، 66.

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]

2-3 : التحوّل الديني :

ولا شك في أن المحاور السابقة قد انضوت في مجملها تحت هذا المحور، ولكنّ الباحثين يريان أن بعض الأشعار ترتبط بالأمور الإيمانية الخالصة، كإعلانه الإيمان برسالة محمد عليه السلام، والرسالات السماوية السابقة، وما جاء به الرسل عليهم السلام ويخصص لها مقطوعة شعرية يقول فيها[2] :

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّداً ... رَسولُ الَّذي فَوْقَ السَّماواتِ مِنْ عَلُ
وَأَنَّ أَبا يَحْيى وَيَحْيى كِلَيْهِما ... لَهُ عَمَلٌ في دينِهِ مُتَقَبَّلُ
وأَنَّ الَّتي بالجِزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ... وَمَنْ دانَها فِلٌّ مِنَ الْخَيْرِ مَعْزِلُ
وَأَنَّ الَّذي عادى الْيَهودُ ابنَ مَرْيَمٍ ... رَسولٌ أَتى من عِندِ ذي الْعَرْشِ مُرْسَلُ
وَأَنَّ أَخا الأَحْقافِ إِذْ يَعْذُلونَهُ ... يَقومُ بِدينِ اللهِ فيهِمْ فَيَعْدِلُ

تنص هذه الأبيات على إيمان الشاعر المطلق بالرسالات السماوية السابقة، وهو خضوع لما جاء في الدعوة المحمدية، يتجلى ذلك في تعالق هذه الأبيات مع آي الذكر الحكيم فيحمل البيت الثاني إشارة إلى قصة سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما في قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا* .... * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ

(1) القرآن، سورة 9 الآية 100. وينظر السورة نفسها، آية117.

(2) شرح الديوان، ص201، أبو يحيى :زكريا عليه السلام، ويحيى ابنه عليه السلام المعروف عند النصارى بيوحنا المعمدان، الجزع: ريض الوادي حيث تقطعه والتي به هي العزى وهو صنم لقريش وبني كنانة، بعث له الرسول خالد بن الوليد فدمره، فل من الخير أي لا خير فيه، الذي عادى اليهودُ: عيسى بن مريم عليه السلام،أخو الأحقاف :هود عليه السلام، الأحقاف: دار عاد أرض بظاهر بلاد اليمن .

وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1]. ثم يعلن في البيت الثالث البراءة من عبادة الأصنام؛ مشيراً إلى العزى؛ وهي صنمٌ لقريش وبني كنانة، أما البيت الرابع فهو ذكر واضح لسيدنا عيسى-عليه السلام- وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا* ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[2]. ويشير في البيت الأخير إلى النبي هود- عليه السلام- مع قومه عاد متكئاً على ما ورد في القرآن الكريم من ذكرٍ لقصته، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ* فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [3] . كما تشير الأبيات إلى الحديث الشريف في قوله عليه السلام: "...أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر" [4]. وفي رثائه للنبي –عليه السلام- يثني عليه إذ جاء مصدقاً للأنبياء السابقين في قوله[5] :

مِنَ الَّذي كانَ فينا يُستَضاءُ بِهِ مُبارَكَ الأَمْرِ ذا عَدْلٍ وَإِرْشادِ

(1) القرآن، سورة 19، الآيات 2- 15. وينظر سورة 3، الآيات 50-58.

(2) القرآن، سورة 19، الآيات: 29-34

(3) القرآن، سورة 46، ، الآيات: 21-25. وينظر سورة 11، الآيات 50-58.

(4) أبو الحسن، مسلم بن الحجاج(261هـ- 875م): صحيح مسلم، ج1، ص139.

(5) شرح الديوان، ص67. الجادي: طالب الجدوى وهي الأعطية .

مُـــصَدِّقاً لِلنَّبِيــينَ الأُلَـــى سَـــلَفوا   وَأَبْذَلَ النَّاسِ لِلْمَعْــروفِ لِلْجـــادي

وفي هذا لم يخرج عن المعاني القرآنية التي تنص على تصديق رسالة الإســلام للأديان السابقة[1] وتتكشف عن إيمان الشاعر بالقرآن الكريم، وما ورد فيه من قصص الأقوام السابقين مع أنبيائهم، وتوظيف هذا القصص في تصوير مَنْ حاول هجاءه مــن الشعراء، من ذلك قوله[2]

يَكـــونُ إذا بَـــثَّ الْهِجـــاءَ لقَوْمِـــهِ   وَلاحَ شِهابٌ مِنْ سَنا الْحَرْبِ واقِــدُ
كَأَشْـــقى ثَمـــودٍ إِذْ تَعطَّـــى لِحَيْنِـــهِ   عَضيلَةَ أُمٍّ الـسَّقْبِ والـسَّقْبُ وارِدُ
فَولّى فَـأَوْفى عـاقِلاً رَأْسَ صَـخْرَةٍ   نَمى فَرْعُها وَاشْـتَدَّ مِنْهـا الْقَواعِــدُ
فَقالَ: أَلا فَاسْـتَمْتِعوا فــي دِيــارِكُمْ   فَقَدْ جـاءَكُمْ ذِكْـرٌ لَكُـمْ وَمَواعِـدُ
ثَلاثَةَ أَيَّـامٍ مِـنَ الـدَّهْرِ لَـمْ يَكُـنْ   لَهُنَّ بِتَـصْديقِ الَّـذي قـالَ رائِـدُ

في هذه الأبيات وظف الشاعر قصة النبي صالح –عليه السلام – مــع قومــه، فمن حاول هجاء الرسول- عليه السلام- فإنه يجرُّ الهلاك والدمار على قومه، كمــا فعل أحمر ثمود عندما عقر الناقة فجلب إلى قومه غضب الله –عزوجل- وحــل بهــم الهلاك، وما كان للشاعر أن يضمِّن مثل هذا القصص لولا الاتكــاء علــى المعــاني القرآنية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبــئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر* فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر *فكيف كــان عذابي ونذر* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾[3]. ونختم هــذا المحور بهذه اللوحة التي يعبر فيها الشاعر عن إيمانه المطلــق بــالله –عــز وجــل-

(1) القرآن، سورة 2، الآيات، 41، 89، 91، سورة 4، آية47، سورة46، آية30.

(2) شرح الديوان، ص78، أشقى ثمود: هو قدار بن سالف، أحمر ثمود وعاقر ناقة النبي صالح عليه السلام .

(3) القرآن، سورة 54، آية27-31.

وتنزيهه –جل في علاه – عن كل شرك ادعى به المشركون ويختم هذه الشهادة، بإخلاص العبادة وطلب العون، يقول[1]:

وَأَنْتَ إِلهُ الْحَقِّ رَبِّي وَخالِقي بِذلِكَ ما عَمَّرْتُ في النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قوْلِ مَنْ دَعا سِواكَ إِلهاً أَنْتَ أَعْلى وَأَمْجَدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنَّعْماءُ وَالأَمْرُ كُلُّهُ فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

وفي هذه اللوحة تشاكل مع الآيات القرآنية: قوله تعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2]أَمَّا البيت الأخير ففيه تعالق مع سورة الفاتحة، في قوله تعالى:﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾"[3]

الخاتمة:

عمدت هذه الدراسة إلى كشف التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت، وعلى الخصوص شعره الإسلامي، إذ إن هذه التحولات ظهرت بعد دخوله الإسلام .

واعتمدت الدراسة في ذلك على ما احتواه الديوان من تأثرات دينية بالقرآن الكريم؛ في الألفاظ والمعاني، والصياغة.

وأثبتت الدراسة أن ثمة تحولات فكرية تجلت في ديوان الشاعر كان من أهمها:

1- التحول في النظرة إلى مصدر الإلهام الشعري من الجن إلى الله عز وجل ومساندة الملائكة.

2- طال هذا التحول بنية القصيدة الجاهلية، إذ وجدنا الدعوة للتحول عن بكاء الطلل، إلى بكاء الصحابة في غير موضع .

(1) شرح الديوان، ص101.

(2) القرآن، سورة 6 ، الآية 100

(3) القرآن، سورة 1 ، الآية 5

3- التحول الثقافي وظهور مصطلحات جديدة في شعره كالملائكة والجنة والفردوس، والحور العين، وغيرها من المصطلحات الغيبية التي لم تظهر في شعره قبل الإسلام، كما نلحظ التأثر الصيغي بالقرآن الكريم .

4-التحول الاجتماعي وظهور العلاقات الاجتماعية الجديدة في الشعر من خلال أغراضه كالمديح والرثاء.

5- التحول السياسي: وذلك بالخروج من مفهوم القبلي إلى مفهوم الأمة الإسلامية.

6- التحول الديني: وهو البوتقة التي انصهرت فيها التحولات السابقة كلّها، ولكنها ظهرت بشكل مستقل في إعلان الإيمان بالله وحده، والإيمان بالديانات السابقة .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1- ابتسام مرهون الصفار: أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول هجري، دار جهينة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2005.

2- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1983.

3- الأنصاري، حسان بن ثابت (54هـ-674م): الديوان، تحقيق: سيد حنفي، مطابع الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1974.

4- الأنصاري، حسان بن ثابت (54هـ-674م): شرح الديوان، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة ، بيروت، ط1، 2006.

5- أنور عليان أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، ط1، 1983.

6- أيهم عباس حمودي: شعر العقيدة في صدر الإسلام وحتى نهاية 230هـ، ، مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، 1986.

7- أبو بكر، الباقلاني، محمد بن عبد المطلب (403هـ- 1012 م) :إعجاز القرآن الكريم، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت ،ط1، 1991.

8-أبو جعفر، البغدادي، محمد بن حبيب (245هـ- 859 م): المحبر، تصحيح: إيلزة ليختن، دار المعارف العثمانية، 1942.

9- الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت393هـ- 1002م): الصحاح، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، مصر، دار الكتاب العربي، بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر طبعة1957

10- أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري (261هـ- 875 م): صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، تحقيق: نظر بن محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 2006، المجلد 2، ص1161-.
11- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (808هـ- 1405م): المقدمة، ، دار الشعب، مصر.
12- أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب (170هـ-746 م) :جمهرة أشعار العرب، شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت،ط3، 2003.
13- شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف ، مصر ، ط7،(د.ت).
14- عائشة عبدالرحمن، بنت الشاطئ: قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1970.
15-عبد الرزاق حميدة: شياطين الشعراء، ، مكتبة الإنجلو، مصر، 1956.
16- أبو عبدالله، البخاري، محمد بن إسماعيل(256هـ- 869 م): صحيح البخاري بحاشية السندي، ، دار المعرفة بيروت.
17- عبدالله سالم المعطاني: قضية شياطين الشعراء وأثرها في النقد العربي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، م1، ع1-2، يوليو/ أغسطس،1991، ص13-23.
18- أبو عبيدالله، القيرواني، ابن شرف(460هـ- 1067م): رسائل الانتقاد(في نقد الشعر والشعراء) تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1983.
19- أبو عثمان، الجاحظ، عمرو بن بحر (255 هـ- 868م): الحيوان، تحقيق: د. يحيى الشامي، دار مكتبة الهلال ، بيروت، ط 3،1997، المجلد الثاني.

20- أبو علي، القيرواني ، الحسن ابن رشيق(456هـ- 1063م): العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2000م.
21- عودة خليل أبو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الأردن- الزرقاء، ط1، 1985.
22- أبو الفرج، الأصفهاني، علي بن الحسن (ت356هـ-967م):الأغاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
23-أبو الفضل، ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم(711هـ-1311م): لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
24- محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط1، 1972.
25- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1973.
26- أبو منصور، الثعالبي، عبد الملك بن محمد (429 هـ- 1040 م) : ثمار القلوب، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة ، مصر، ط1، 1965.
27- نضال أحمد باقر الزبيدي: الثنائيات المتضادة في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام، دار الينابيع، ستكهولم ، ط1، 2010.
28- يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1976.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة.جامعة دمشق 2011/9/26